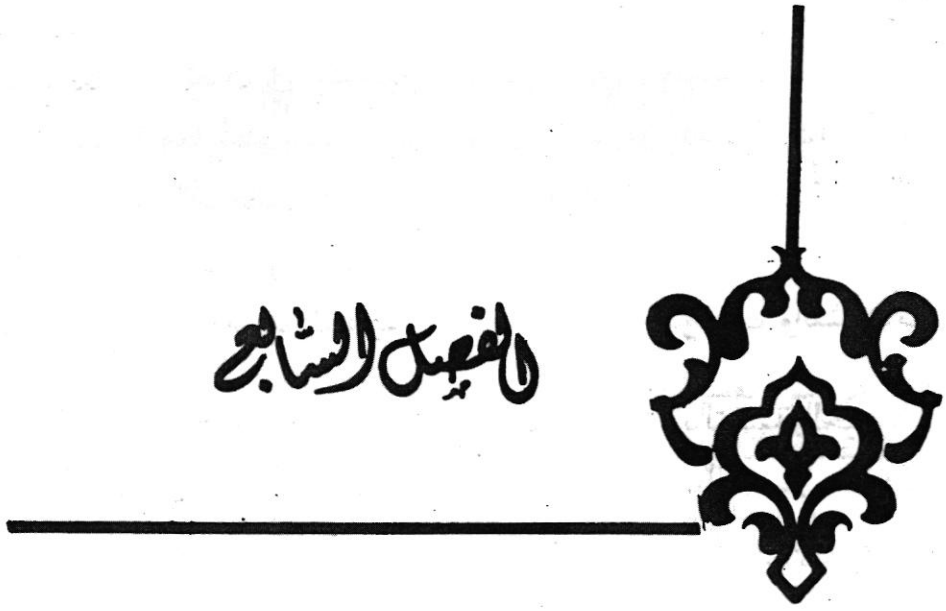

الفصل السابع

ابن المعتز ونظرية البديع

لابد لمن يريد الحديث عن آراء ابن المعتز النقدية في البديع وغيره ان ينطلق اولا من حقيقة كونه شاعرا . ليعرف مدى تأثير شاعريته واتجاهه الفني في آرائه النقدية .

واذا تتبعنا اوصاف القدماء لميزات شعر ابن المعتز وجدناهم يجمعون على توافر ميزتين واضحتين في شعره :

١ . ميله الى البديع والتشبيهات المبتكرة .
٢ . التأنق في اللغة الشعرية

وقد اثنى القدماء على اجادة ابن المعتز لفني النظم والنثر . ووصفوا اقتدار على اختراع المعاني بأسلوب بليغ جميل(١) .

اما ميله الى التشبيه وآبداعه فيه فامر شائع لدى النقاد والباحثين ويكفي ان نورد رأي ابن رشيق بأنه : (قد انتهى اليه التشبيه وسر صناعة الشعر)(٢) . وقوله :

---

(١) انظر مثلا الاوراق للصولي ١٠٧ ، زهر الاداب للحصري ١ / ١٧٦ ، وفيات الاعيان ٢ / ٧٦ .
(٢) العمدة ٢ / ١٠٩

(مع انه لكل شاعر طريقة تغلب عليه فينقاد اليها طبعه ويسهل عليه تناولها كأبي نوأس في الخمر وابي تمام في التصنيع والبحتري في الطيف . وابن المعتز في التشبيه(٣) . او قوله (وما اعلم شاعرا اكمل ولا اعجب من عبد الله بن المعتز فأن صنعته خفيه لطيفة لاتكاد تظهر في بعض المواضع الا للبصير بدقائق الشعر . وهو عندي الطف اصحابه شعرا واكثرهم بديعاً وافتنانا)(٤)

وجعله العباسي في معاهد التنصيص اشعر الناس في الاوصاف والتشبيهات(٥)

ويقول الثعالبي مجسدا قدرة ابن المعتز على الاتيان بالتشبيه الجيد الحسن (اذا رأيت كأن التشبيه في شعر ابن المعتز فقد جاءك الحسن والاحسان)(٣) وقد اعجب البلاغيون بتشبيهاته حين أكثروا من ذكر شواهده الشعرية مبينين اضرب التشبيه ووجوهه . وتنبه الباحثون الى اسلوبه الشعري والفاظه الكتابية فميله الى التشبيهات المبتكرة والبديع والاوصاف الجديدة ميزة عرفت بها اشعاره . فاذا تذكرنا انه استمد خياله واوصافه من حياته المترفة فعلا عرفنا سبب اعجاب القدماء بها . لانها صدرت عن طبع شعري متمكن . وصورت واقعا عاشه الشاعر فعلا ولم يلجأ فيه الى الافتعال والصنعة المتعمدة بل اتسمت أشعاره بجمال الاسلوب وعذوبة الالفاظ وخصوبة القريحة والتجويد في التصوير . وقد فطن ابن الرومي بذكائه الى ان معظم تشبيهات ابن المعتز التي اعجب بها معاصروه مستمدة من حياته المترفة . وان ابداعه فيها متأت من معايشته لها فعلا ومن ثم لايستطيع شاعر آخر لم يشهد هذا التفنن في صور الحياة اليومية ان يأتي بمثيلات لها . الشاعر من عامة الناس ان يصور او يتخيل هذه الاوصاف البعيدة المنال ؟ : آنية الذهب والفضة وانواع العطور وضروب الازاهير والورود النادرة ومعالم الزينة المرفة انه ابن المعتز الذي يراها حقيقة كل يوم في قصور الخلافة حيث التفنن الحضاري في وسائل العيش ومظاهرها(٦)

---

(٣) المصدر نفسه ٢٨٥

(٤) نفسه ١٠٩ ٢ معاهد التنصيص ١ / ١٤٦

(٥) ثمار القلوب ٢٢٧ ، وانظر رسائل ابن المعتز ٣٣ .

(٦) انظر اسرار البلاغة ١٧٦ ، ١٧٧ ، العمدة ٢٣٦ ، معاهد التنصيص ٥١ ـ ٢ وانظر الفصل الذي كتبه د يونس السامرائي ص ٢٧٣ في كتابه شعر ابن المعتز .

والحق ان ابن الرومي لم ينكر جمال تشبيهات ابن المعتز او اوصافه انما رآها صورة لحياته المترفة التي هيآت له سمة اجتماعية وفنية خاصة في الشواهد الجميلة التي تحدوه بها لان ابن المعتز لم يكتف بتصوير المظاهر المترفة الرقيقة في حياة القصور بل تجاوزها الى كثير من التشبيهات الحسية والعقلية في حياة القصور بل تجاوزها الى كثير من التشبيهات الحسية والعقلية التي افاض في تتبعها القدماء والمحدثون .

ومثل ابن الرومي نفسه اتجاها فنيا اخر استمد فيه تشبيهاته واخيلته من حياته اليومية ـ حياة عامة الناس ـ فصورها اجمل تصوير وابدع في رسمها بدقة متناهية وتصوير يشخص فيه الاوصاف بالوانها واشكالها وحركاتها . فدقة التشبيه سمة الشاعرين ابن المعتز وابن الرومي وكلاهما يستمد مادته من بيئته . ذاك ينقل الاخيلة البعيدة المنال المترفة الجميلة وهذا يصور مشاهد الحياة اليومية المألوفة فيشخص للناظر اجمل تشخيص . ومرد هذه القدرة الفنية على التصوير الى تمكن الطبع الاصيل الذي يؤهل صاحبه للتفنن في استعمال المفردات اللغوية فتكون طيعة ريضة ترسم له مايشاء من اخيلة وصور مبتكرة .

المهم ان ابن المعتز مثل اتجاها فنيا عرف به في عصر غيره من الشعراء الا انه اختص بميله الى الوصف والتشبيه . والواقع ان التشبيه ضرب من اضرب البديع الذي اتضحت فنونه في عصر ابن المعتز ورسخت قواعده واصوله فيما بعد فعرف بعلم البديع .

وقد اقترن اسم ابن المعتز به حين تصدى للتأليف فيه وافرد كتابا بأسم (البديع) فصل فيه القول ، وذكر فنونه وشواهده . فهل جاء تأليفه لهذا الكتاب استجابة لرغبة علمية بحتة ؟ ام انه صدى لشاعريته ، وميله الفني ، اراد تثبيته وايضاحه وضبط قواعده لامثاله من الشعراء والنقاد ؟ .

لقد عرف ابن المعتز البديع بأنه (اسم موضوع لفنون من الشعر يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين منهم . فأما العلماء باللغة والشعر القديم فلا يعرفون هذا الاسم ولا يدرون ماهو . وما جمع فنون البديع ولاسبقني اليه احد)(٧)

---

(٧) البديع ٦٨

وقد احسن ابن المعتز في اشارته هذه ، لان الشعراء ومن يهتم بالشعر من النقاد هم الذين يعرفون البديع لانه شاع في اساليب الشعراء المحدثين في العصر العباسي واثار ميلهم الى الاكثار منه اهتمام النقاد الا انهم لم يفردوه بكتاب ، ولا عنوا بوضع اسماء ومسميات لانواعه واقسامه .

لقد قيل ان مسلم بن الوليد المتوفي سنة ٢٠٨ هـ كان يطلق اسم البديع او اللطيف على ماسمي فيما بعد بالبديع ، مكثرا من ايراده في اشعاره جامعا بين الصنعة والتفنن حتى سماه ابن رشيق بزهير المولدين(٨) لانه كان يبطيء في صنعته ويجيدها .

اما الجاحظ فقد ذكر البديع واشار الى اساليبه وفنونه استطراداً في كتابيه البيان والتبيين والحيوان . فقد اورد بيت الاشهب بن رميلة :

هم ساعد الدهر الذي يتقى به
وما خير كف لاتفوز بساعد

ووقف عند تعبير (هم ساعد الدهر) قائلا : انما هو مثل ، وهو الذي تسمية الرواة البديع . ومن هنا قرر حكما عاما على الشعر العربي فرأى ان البديع مقصور على العرب ومن اجله فاقت لغتهم على كل لغة واريت على كل لسان)(٩)

ومن المعلوم لدى المحدثين ان ارسطو تحدث عن الاستعارة وعدها سمة العبقرية وهي باب من ابواب البديع .

فهل كان حكم الجاحظ هنا دليلا على عدم اطلاعه على الشعر اليوناني مباشرة ؟ ام انه اراد ان يقصر فضله على العرب ؟ اغلب الظن انه لم يطلع على الشعر اليوناني لان المترجمين احجموا عنه لما فيه من وثنية تعارض الفكر الاسلامي ووحدانية الله) .(١٠)

وحين تحدث الجاحظ عن الخطباء والشعراء التفتت الى تفنن بعضهم في ايراد البديع قائلا :

---

(٨) العمدة ١ / ١١٠

(٩) البيان ٣ / ٢٤٢

(١٠) راجع في هذا دراسات الادب ـ طبانة ، مقالات في النقد الادبي داود سلوم الجاحظ وارسطو لوديعة طه النجم .

(ومن الخطباء الشعراء ممن كان يجمع الخطابة والشعر الجيد ، والرسائل الفاخرة مع البيانّ الحسن كلثوم بن عمرو العتابي ، وكنيته ابو عمرو وعلى الفاظه وحذوه ، ومثاله في البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من شعراء المولدين كنحو منصور النمري ، ومسلم بن الوليد الانصاري واشباههما . وكان العتابي يحذو حذو بشار في البديع ولم يكن في المولدين اصوب بديعا من بشار وابن هرمة)(١١)

ولكن الجاحظ يرجع البديع في موضع اخر من كتابه الى الراعي النميري حين يقول (ان الراعي كثير البديع في شعره بشار حسن البديع والعتابي يذهب شعره في البديع(١٢)

اما قضايا البديع فقد عرض الجاحظ الى كثير منها في بعض المواطن التي علق فيها على شاهد شعري او آية كريمة او قول مأثور فكثرت تعليقاته على التشبيه مبينا اوجه الشبه موضحا الردىء والمستحسن منه ، واورد في الجزء الثالث من كتاب الحيوان قطعا من البديع كلها ـ كما يبدو من الشواهد القديمة .

ولم يبين الجاحظ موطن البديع او نوعه الا انه اورد الشواهد في مكان واحد وكأنه يريد القول ان البديع موجود في الشعر القديم بعد ان اورد قطعة اخرى في التشبيه مبينا اوجه الشبه وشواهده فيها ايضا من الشعر الجاهلي .(١٣)

وقد اشار ابن المعتز نفسه الى النوع الخامس من انواع البديع الذي سماه بالمذهب الكلامي مؤكداً ان الجاحظ هو اول من سماه به : (وهذا باب ما اعلم اني وجدت في القرآن منه شيئا وهو ينسب الى التكلف تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا)(١٤)

واذا تتبعنا مفهوم البديع عند ابي المعتز وعند من سبقه وجدناه عاما شاملاً كل فنون الصنعة والجمال الفني كالجناس ، والطباق والتشبيه ، والاستعارة ، والالتفات وحسن الابتداء وحسن التعليل وما الى ذلك ، الا ان مصطلحاته لم تستقر حتى سجلها ابن المعتز وصنفها وبين شواهدها في كتاب البديع . وهذا امر طبيعي لان

---

(١١) البيان والتبيين ١ / ٥١

(١٢) البيان والتبيين ٤ / ٥٦

(١٣) الحيوان ٣ / ٥٢ ، وانظر اشارته الى المجاز والاستعارة والكناية في البيان والتبيين ١ / ٢٨٧ .

(١٤) البديع ٦٨٤

الظواهر الفنية تسبق الاحكام النقدية والقواعد الفنية التي يصنعها النقاد والدارسون لكل فن شعري فالشعراء كانوا يستخدمون اضرب البديع في اشعارهم ومخاطباتهم دون ان يضعوا لها مسميات وانما كانت ترد عندهم عفو الخاطر وطوع السليقة فلا عجب أن تجد اختلاف النقاد في بدء مرحلة التأليف النقدي في اطلاق بعض المسميات على أضرب سميت بغيرها فيما بعد فالطباق مثلا او التطبيق هو (مساواة المقدار) كما ذكر الجاحظ(١٥)

ونقل ابن رشيق ان الاصمعي كان يسميه المطابقة (الجمع بين الشيئين وما يقابله من الكلام)(١٦) . ويوافق هذا قول ابن المعتز الذي اوضحه بقوله (فالقائل لصاحبه اتيناك لتسلك بنا سبيل التوسع فادخلتنا في ضيق الضمان قد طابق بين السعة والضيق)(١٧)

ان فنون البديع واساليبه كانت معروفة عند الشعراء المحدثين وقد سبقهم اليها القدماء الا ان المصطلحات لم تستقر بعد ، ولم تجمع في كتاب مفرد . ومن هنا يظهر فضل ابن المعتز في قدرته على حصر بعض هذه الفنون وتقسيمها ، واطلاق مسميات لها مع سرد شواهدها وابداء رأيه في كثير منها ، وقد اهلته شاعريته الفذة وميله الى استخدام اساليب الصنعة المنسجمة مع الطبع والجمال الفطري في اشعاره . وقد اشار القدماء الى فضل ابن المعتز في هذا الكتاب فقال ابن رشيق :

((فانتهى علم البديع والصنعة اليه وختم به))(١٨) وانه اول من نحا هذا المنحى في الجناس وجمعه(١٩) .

وذكر السيوطي ان اول من اخترع ذلك (البديع) ابن المعتز فجمع فيه سبعة عشر نوعاً(٢٠) وهو يريد اختراعه المسميات وتسجيلها في كتاب واحد لانها كانت موجودة فعلاً قبل كتابه . كما ان بعض مسمياتها معروفة متداولة .

---

(١٥) البيان ١ / ٨٥ ـ ٨٦

(١٦) العمدة ٢ / ٦

(١٧) البديع ٦٦١

(١٨) العمدة ١ / ١١٠

(١٩) المصدر السابق

(٢٠) عقود الجمان للسيوطي ص ٩٢ عن ابن المعتز الخفاجي ص ٦٠٣